

### الاشتقاق الأكبر عند ابن جني

وإذا كان ابن جني - على ولوعه بهذا الاشتقاق الكبير - "أو الأكبر كما يسميه" يترفق فيه ولا يبالغ، فقد تكلف بعضهم فيه وفي غيره تكلفاً لا يطاق، فخرجوا على مدلول اللفظ الأصلي، وتعمسوا في التعليل والتفسير؛ فهذا حمزة بن الحسن الأصبهاني يقول في كتاب "الموازنة": "كان الزجاج يزعم أن كل لفظتين اتفقتا ببعض الحروف، وإن نقصت حروف إحدهما عن حروف الأخرى، فإن إحدهما مشتقة من الأخرى؛ فتقول: الرَّحْل مشتق من الرَّحِيل، والثور إنما سمي ثوراً لأنه يثير الأرض، والثوب إنما سمي ثوباً لأنه ثاب "أي رجع" لباساً بعد أن كان غزلاً، حسيبه الله!"

وأمثال هذه المبالغات التي يظهر عليها التكلف حملت السيوطي على أن يقول عن هذا الاشتقاق الكبير: "إنه ليس متعمداً في اللغة، ولا يصح أن يستنبط به اشتقاق في لغة العرب"، بل نجد ابن جني نفسه لا يسلم - رغم اعتداله وترفقه - من نقد السيوطي له في هذا الموضوع، إذ يتهمه بأنه توسع في هذا الاشتقاق "بيانا لقوة ساعده، وردّه المختلفات إلى قدر مشترك، مع اعترافه وعلمه بأنه ليس موضوع تلك الصيغ، وأن تراكيبها تفيد أجناساً من المعاني مغايرة للقدر المشترك"؛ وأخيراً يفصل السيوطي هذا الباب برأي معتدلٍ سديدٍ فيقول: "وسبب إهمال العرب له، وعدم التفات المتقدمين إلى معانيه، أن الحروف قليلة، وأنواع المعاني المتفاهمة لا تكاد تنهاى؛ فخصوا كل تركيب بنوع منها، ليفيدوا بالتراكيب والهيئات أنواعاً كثيرة؛ ولو اقتصروا على تباين المواد، حتى لا يدلوا على معنى الإكرام والتعظيم إلّا بما ليس فيه شيء من حروف الإيلاام والضرب - لمنافاتها لهما - لصاق الأمر جدّاً، ولاحتاجوا إلى ألوف حروف لا يجدونها" إلى أن يقول: "ففي اعتباره المادة دون هيئة التركيب من فساد اللغة ما بينت لك، ولا يُنكرُ مع ذلك أن يكون بين التراكيب المتحدة المادة معني مشترك بينهما، هو جنس لأنواع موضوعاتها؛ ولكن التحيل على ذلك في جميع مواد التركيبات كطلب لعنقاء مغرب".

ويميل بعض الباحثين المعاصرين إلى القول بأن أصحاب الاشتقاق الكبير "اقتبسوا فكرة تقليد الأصول من معجم العين "للخليل" وأمثاله؛ فقد سلك صاحب العين، وصاحب الجمهرة "ابن دريد"، وغيرهما، مسلكاً عجيباً في ترتيب الكلمات، فكان كلٌّ منهم حين يعرض لشرح كلمة من الكلمات يذكر معها تقلباتها، ويذكر معنى كل صورة من صورها دون التعرّض للربط بين دلالات تلك الصور، فهي طريقة إحصائية أو قسمة عقلية لجأ إليها أصحاب هذه المعاجم بغية حصر كل المستعمل من كلمات اللغة، وخشية أن يند بعضها عن أذهانهم، فلما جاء أصحاب

الاشتقاق من أمثال ابن جني وابن فارس، ربطوا أيضاً بين دلالات تلك الصور، واستنبطوا معاني عامة مشتركة بينها، وسمي هذا بالاشتقاق الكبير".

وإذا كنا اليوم - في سبيل تأييد هذه الحقيقة - لا نملك من الوثائق العلمية عن معجم "العين" إلّا قليلاً، لا يبيل ظمأ ولا يشفي غليلاً ، فإن بين أيدينا معجم "الجمهرة" الذي سار فيه ابن دريد على هدي الخليل، واتبعه فيما شاع عنه من تقليب الأصول، وإن كان لابن دريد نظام خاص في سرد المواد لا مكان هنا للحديث عنه ولا للخوض فيه.